

٤ - جامع احمد ابن طولون

للأستاذ أحمد رمزي بك

فصل مصر في سوريا ولبنان



ولا أجد حرجاً من إيراد نص اللوحة التذكارية التي كتبت
بالخط الكوفي المزهر لذلك المهد وفيها :

« نصر من الله وفتح قريب ، لعبد الله ووليه معد أبي تميم
الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وعلى آبائه
الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين ، أمر بتجديد هذا الباب ،
وما يليه عند عدوان النار على أيدي المارقين ، السيد الأجل أمير
الجيوش سيف الإسلام ، ناصر الأنام أبو النجم بدر المستنصر ،
أدام الله قدرته ، وأعلى كفته ، ابتغاء ثواب الله ، وصلب مرضاته
وذلك في صفر سنة سبعين وأربعمائة »

وتدل تلك الكتابة على حوادث الثورة ، التي جرت في
عهد المستنصر حينما اعتصم بمض التوار بالجامع وتحصنوا فيه ،
فحوصروا وأحرق بسبب ذلك جزء منه جده الأمير بدر الجمالي
وزير الدولة الفاطمية

في تاريخ مصر العربية ، وقفات حزن وأسى ولوعة ،
اضطرب فيها قلب مصر كما قال أحد كتابنا في دفن الزعيم
مصطفى كامل ، ولقد قال شوقي يومئذ :

شقت لنظرك الجيوب عقائل وبكتك بالدمع المتون غواني
ولقد وقفت القاهرة صفاء صفاء ، تودع الزعيم الشاب إلى
مرقده الأخير ، وأثر في هذا النظر ، أنا القاهري الناشئ ،
فصرت وطنياً وأنا في السابعة إلى نهاية ما يكون الوطنى عليه
في الحاس

وأثر في كرجل يميل إلى التاريخ والأدب ، فصرت أتبع
أيام مصر التي اضطرب فيها قلبها ، اضطراب يوم مصطفى كامل
وإني لأذكر بعد البحث ، أن صفحات تاريخنا مخلوعة ،
يمثل هذا اليوم ، ولكني لا أجد حزناً ولوعة بنسبة حزن مصر
وأهلها على زوال ملك الفاطميين

إن ما وصل إلينا من ذلك قليل من كثير ، ولكنه يفيض
حناناً . والحقيقة أن العصر الفاطمي قد ترك فينا معاشر المصريين
أكبر الأثر ، وصبح حياتنا صبغة خاصة ، فإذا أردت أن
تدرس مصر العربية ، لا تنسى أن تدرس الدولة الفاطمية
بالتفصيل ، فتحن لا تزال نسير على سننهم ومراسمهم ؛ فزيارة آل
البيت فرض على كل من يؤم القاهرة من أهل الريف ،
والاحتفال بصلاة الجمعة القيمة والميدين ، والاهتمام بالقراء
والتلاوة والتلقين كلها من آثار ذلك المهد

ومنذ أيام كتبت أقلب كتاب الروشتين فجاء ذكر الشاعر
عمارة اليميني بأنه من أتباع الدولة المصرية وأورد له شعراً رقيقاً
يفيض حنواً على الإمام العاضد آخر خلفائهم إذ يقول :

أسقى على زمن الامام العاضد أسف المقيم على فراق الواحد
لهفي على حجرات قصرك إذ خلت

يأين النسبي من ازدحام الوافد
ولقد دفع عمارة الشاعر الثمن بحياته جزاء إخلاصه ،
وبشعره تطوى صفحة من تاريخ مصر ، تصحبها نفقة من
نغمت الحزن العميق والتقدير ، لتدخل طوراً من أطوار المجيد
والبطولة تنمره الحوادث والمعارك والنصر والغلبة

أنتقل إلى القسم الأخير من هذه الكلمة ، فأعرض لوصف
المسجد وصفاً مختصراً :

الجامع الطولوني هو الثالث في ترتيب المساجد الجامعة التي
أقيمت فيها صلاة الجمعة في مصر ، بعد الفتح التحريري العربي ،
بناه الأمير أحمد بن طولون على جبل يشكر في الجهة الجنوبية من
القاهرة ، بينها وبين القسطة ، في حي السيدة زينب الآن ، وهو
أقدم مساجد مصر بلا نزاع ، بل أقدم آثارها العربية ، بعد
مقياس النيل بجزيرة الروضة ، وأول جوامع مصر هو الذي بناه
عمرو بن العاص ، ثم جامع المسكر . فلما قدم ابن طولون صار
يصلي فيه الجمعة بمجندة وسودانه ، فشكا أهل مصر إليه ، فحزم
على بناء جامع ، فأشار عليه جماعة من الصالحين أن يبنيه على جبل
يشكر ، فذكروا له فضائله فأخذ برأيهم .

أم بنيت معه وهل هي صورة من منارة سامرا الخزونية؟ والعلماء وهم كمادتهم قد جزموا بأن الأثر البيزنطي ظاهر واضح في كل شيء، وأن العرب لم يأتوا بجديد، فكبر على نفوسهم أن تأتي الحفائر والاكتشافات فتظهر أن المسجد صورة من مسجد عربي، أكبر من هذا هو جامع سامرا، وأن الأسطورة البيزنطية لا شأن لها اليوم وقد وضعت المنايا الحق على لسان الأستاذ كريسول فدعمه بعلم وتحصيل دقيق يعجز عنه المتصدرون لاستعمال العلم لغايات في أنفسهم هي الإقلال من شأن العرب والعروبة

وللمنارة حديث طويل، وفي أواخر القرن السابع الهجري لجأ إليها الأمير حسام الدين لاجين النصوري، وكان المسجد مهجوراً، ويوقد به سراج واحد، ويدخله خادم، وقد تمطلت الشعائر الدينية فيه

(النقية في العدد القادم)

أحمد رمزي

ذكر ابن دقلق والمقرئ عن هذا المسجد من أن بناءه أقيم على مثال جامع سامرا أو سر من رأى

ولقد ذكر الأستاذ كريسول ما يأتي :

إنه على عهد بني أمية كانت الدولة عربية حصة، وكان يغلب على المهارة التأثير السوري واستعمال الفسيفساء

ثم انتقلت عاصمة الخلافة إلى بغداد في عهد بني العباس، وصارت مركز التطور الدولي، فنقلت على المهارة المؤثرات الفارسية وأساليب المهارة الساسانية والمراقية

وابن طولون من مواليد سامرا وقد جاء إلى مصر يحمل معه كل تقاليد البلاط، وما من شك في أنه يعيل إلى تقاليد مولاه

كتب الكثيرون في وصف المسجد، ولقد أخذنا ما تقدم نقلاً عن لأستاذ محمود عكوش في كتابه المطبوع ١٩٢٧، ولكن ظهر بين يدينا اليوم كتاب الأستاذ كريسول العظيم، ويتضح من أبحاثه التي قام بها في العراق والصومال التي أخذها لجامع سامرا من الجو، أن التماثل بين المسجدين عظيم، وأن مسجد ابن طولون ما هو إلا صورة مصغرة للمسجد الذي بناه المتوكل في عاصمة ملوك سامرا بالعراق

فإذا كانت البوانك على صفين من الجانبين في مسجد مصر، فهي أربعة في مسجد المتوكل، وقس على ذلك السمة والأروقة والارتفاع والضخامة، ولقد كشفت صور الجو أن تحت الثرى مدينة بأكلها قد قطبها الفيضانات العالية، بدجلة تنتظر الكشف لتخرج مدينة سامرا القديمة بشوارعها ومبانيها كما كانت في أيام العباسيين

ولا شك في أن مسجد ابن طولون سيكون نموذجاً، قد حفظته مصر للعراق، إذا فكرت الحكومة العراقية في إعادة بناء مسجد المتوكل، إنه سيكون تحفة من تحف الدنيا، ومظهراً من أضخم مظاهر مدينة العرب، وجبروتهم في المهارة والإنشاء ونعرض هنا إلى موضوع المنارة، فهي من أغرب ما يصتوقف الأبصار، وتعد من الألفاظ لأنها مبنية على شكل

لا نظير له في المنائر بجميع الأقطار العربية والإسلامية. ولقد اتسم العلماء واختلفوا كمادتهم هل هي لاحقة لبناء المسجد،



- الراجل ده يا كيوه انضج له كتر يا كيوه كسيه الدربي

- لذكره ولا ذكره... ده اشترى منه من اراضى الأوقاف